الاستعانة باﷲ.. علاقة مستمرة بالخالق

◄قال تعالى: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) (الفاتحة/ 5).

الهدف:

توضيح مفهوم الاستعانة باﷲ وبيان موارد الاستعانة والفهم الخاطئ لهذا المفهوم.

من خلال الآية المتقدّمة نرى أنّ اﷲ كما أمرنا بعبادته وحده لا شريك له، فقد أمرنا كذلك بالاستعانة به دون سواه، وأراد منّا الرجوع إليه في كافّة ما يعترض حياة الإنسان من حوادث وتحدّيات، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ العلاقة باﷲ ليست علاقة طقسيّة تقتصر على بعض العبادات والفرائض، بل هي علاقة مستمرّة وفاعلة، وعلى الإنسان أن يفعّلها ويقويها ويلجأ إليها في ساعات الشدّة والرخاء، بل لعل كمال العبادة في الاستعانة به دون سواه، وأنّ عدم الاستعانة باﷲ نقصٌ في العبادة، بل نقصٌ في فهمنا للمعبود كذلك.

محاور الموضوع:

يمكن أن تتحقّق الاستعانة باﷲ أو بغير اﷲ بصورتين:

1- أن نستعين بعامل – سواء أكان طبيعيّاً أم غير طبيعي – مع الاعتقاد بأنّ عمله مستند إلى اﷲ، بمعنى أنّه قادر على أن يعين العباد ويزيل مشاكلهم بقدرته المكتسبة من اﷲ وإذنه.

وهذا النوع من الاستعانة – في الحقيقة – لا ينفكّ عن الاستعانة باﷲ ذاته، لأنّه ينطوي على الاعتراف بأنّه هو الذي منح تلك العوامل، ذلك الأثر، وأذن لها، وإن شاء سلبها وجردها منه.

فإذا استعان الزارع بعوامل طبيعيّة كالشمس والماء وحرث الأرض، فقد استعان باﷲ – في الحقيقة – لأنّه تعالى هو الذي منح هذه العوامل: القدرة على إنماء ما أودع في بطن الأرض من بذر ومن ثَمّ إنباته والوصول به إلى حدّ الكمال.

2- أن يستعين بإنسان حيّ أو ميت أو عامل طبيعي مع الاعتقاد بأنّه مستقلّ في وجوده، أو في فعله عن اﷲ، فلا شكّ أنّ ذلك الاعتقاد شرك والاستعانة به عبادة.

فإذا استعان زارع بالعوامل المذكورة وهو يعتقد بأنّها مستقلّة في تأثيرها أو أنّها مستقلّة في وجودها ومادّتها كما في فعلها وقدرتها، فالاعتقاد شرك والطلب عبادة للمستعان به.

ولإيقاف القارئ على هذه الحقيقة نلفت نظره إلى آيات تحصر جملة من الأفعال الكونيّة في اﷲ تارة، مع أنّها تنسب نفس الأفعال في آيات أخرى إلى غير اﷲ أيضاً، وما هذا إلّا لعدم التنافي بين النسبتين لاختلاف نوعيّتهما، فهي محصورة في اﷲ سبحانه مع قيد الاستقلال، وتنسب إلى غير اﷲ مع قيد التبعيّة والعرضيّة. الآيات التي تنسب الظواهر الكونيّة إلى اﷲ وإلى غيره:

1- يقول سبحانه: (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) (الشعراء/ 80). بينما يقول سبحانه في العسل: (شِفَاءٌ لِلنَّاسِ) (النحل/ 69).

2- يقول سبحانه: (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ) (الذاريات/ 58)، بينما يقول تعالى: (وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا) (النساء/ 5).

3- يقول سبحانه: (أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ) (الواقعة/ 64)، بينما يقول سبحانه: (يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ) (الفتح/ 29).

4- يقول تعالى: (وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ) (النساء/ 81)، بينما يقول سبحانه: (بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) (الزخرف/ 80).

5- يقول تعالى: (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأمْرَ) (يونس/ 3)، بينما يقول سبحانه: (فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا) (النازعات/ 5).

6- يقول سبحانه: (اللَّهُ يَتَوَفَّى الأنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا) (الزمر/ 42). بينما يقول تعالى: (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ) (النحل/ 32).

إلى غير ذلك من الآيات التي تنسب الظواهر الكونيّة تارة إلى اﷲ تعالى، وأخرى إلى غيره.

مفردات الاستعانة باﷲ:

الصبر والصلاة: قال تعالى: (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلا عَلَى الْخَاشِعِينَ) (البقرة/ 45). فإنّ الاستعانة باﷲ ليس لها مصداق إلّا الصبر والاشتغال بمناجاة اﷲ وعبادته ثانياً.

وقال تعالى: (قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) (الأعراف/ 128-129).

هذه الآية تشير إلى مبادئ وشروط ثلاثة: أحدها في العقيدة وهو (الاستعانة باﷲ)، والثاني: في الأخلاق وهو (الصبر والثبات) والأخير: في العمل، وهو (التقوى)، وهي ليست شرائط انتصار قوم بني إسرائيل وحدهم على العدوّ، بل كلّ شعب أراد الغلبة على أعدائه لابدّ له من تحقيق هذه البرامج الثلاثة، فالأشخاص غير المؤمنين والجبناء وضعفاء الإرادة، والشعوب الفاسقة الغارقة في الفساد، إذا ما انتصرت فإنّ انتصارها يكون لا محالة مؤقّتاً غير باق.

كما أنّ فرعون لا يملك الأرض حتى يمنحها من يشاء، ويمنع من التمتّع بها من يشاء، بل هي ﷲ يورثها من يشاء، وقد جرت السنّة الإلهيّة أن يخصّ بحسن العاقبة من يتّقيه من عباده، فإن استعنتم باﷲ وصبرتم في ذات اﷲ على ما يهدّدكم من الشدائد – وهو التقوى – أورثكم الأرض التي ترونها في أيدي آل فرعون.

مكارم الأخلاق: فعن عليّ (ع) في بيان ما يجب على الأُمّة أن تستعين باﷲ به نصرةً لإمامها: "أعينوني بورعٍ واجتهاد وعفّةٍ وسداد".

الدعاء: قال تعالى: (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) (غافر/ 60).

القرآن: فإنّ آيات اﷲ وكلماته خير ما يستعين به المرء في حياته وقد تضافرت الروايات التي حثّتنا على الاستعانة بكتاب اﷲ.

التوسّل بالأنبياء والأئمّة (عليهم السلام): وذلك لرفعة مقامهم عند اﷲ تعالى، وأنّه أوجب علينا التوسّل بهم لاستنزال إعانة السماء، فهم باب اﷲ الذي منه يُؤتى، والتوسّل بهم ليس كما يتوهّم البعض من اعتبارهم سلطة مستقلّة وتأثير مستغنٍ عن اﷲ، بل بما أعطاهم اﷲ من السلطة ومنّ عليهم من التأثير.

الصمت: قال تعالى عن لسان مريم (ع): (إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا) (مريم/ 26). فقد أعان اﷲ مريم لينجّيها من القوم الذين أرادوا بها سوءاً وذلك من خلال الصمت وعدم الدخول معهم في الجدل والقيل والقال.

بركات الاستعانة باﷲ:

عن عليّ (ع): "وأكثر الاستعانة باﷲ يكفك ما أهمك ويُعنِك على ما نزل بك إن شاء اﷲ".

ولأنّ من استعان بغيره، فقد استسمن ذا ورم، ونفخ في غير ضرم، أفلا يستعان به وهو الغني الكبير؟! أم كيف يطلب من غيره والكلّ فقير؟! وإنّي لأرى أنّ طلب المحتاج من المحتاج سفه من رأيه وضلّة من عقله، فكم قد رأينا من أناس طلبوا العزّة من غيره فذلّوا، وراموا الثروة من سواه فافتقروا، وحاولوا الارتفاع فاتضعوا، فلا يستعان إلّا به تعالى وتقدّس، ولا عون إلّا منه تبارك وتعالى.

ولقد كان رسول اﷲ (ص) يدعو اﷲ: "آمنن علينا بالنشاط، وأعذنا من الفشل والكسل والعجز والعلل والضرر والضجر والملل".

وعنه (ص): "اللّهمّ إنّي أعوذ بك من الهمّ والحزن والعجز والكسل".

وأوضح من هذا ما ورد من آيات في (التوكّل) باعتباره يمثل شعبة من شعب الاستعانة باﷲ عزّ وجلّ، قال تعالى: (... وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) (هود/ 88).

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ

رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) (التوبة/ 129).

(.. وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) (آل عمران/ 160).

(.. وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) (المجادلة/ 10).

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ...) (هود/ 123). ►